الفصل الثالث

أم درمان في عهد الخليفة عبدالله١٣٠٢هـ- ١٣١٤هـ ١٨٨٥-١٨٨٩م:

التوسع الذي طرأ على أم درمان القديمة:

آلت الأمور إلى الخليفة عبدالله التعايشي بعد موت المهدي وبدأ في البناء وتحولت أمدرمان من معسكر إلى مدينة مستقرة ولا توجد أرقام ثابتة لطول امتدادها على النهر ولكن متوسط امتدادها قدر بخمسة أميال[١].

وقد قامت في عهده حملة عمرانية كبرى شملت العديد من المرافق وتعمد الخليفة عبدالله أن تكون هذه المرافق في الجزء الجنوبي من المنطقة التي يقطنها مع أهله فبنى سجن الساير وبيت المال، وربع الملازمين ومنزله وبيت الأمانة، وقبة المهدي، وبعض الطوابي على شاطىء النيل[٢].

كما أقام سوراً كبيراً يفصل المدينة ويشكل درعاً له ولأهله[٣] وللسور بوابة رئيسية يصعب اجتيازها وهي بوابة "دلدوم" الشهيرة ببوابة عبدالقيوم[٤] كما أقام الخليفة سوراً آخر حول قبة المهدي يقع خلف المسجد الكبير[٥].

ولم نقف على حدود ذلك السور الذي امتد ليشمل تلك المنطقة إلا بقايا منه تمثل في تلك البوابة المذكورة.

وتطورت في عهد الخليفة عبدالله التعايشي العمارة وتحول الناس من البناء بالقش إلى البناء بالطين[٦]. وتقول الراوية خديجة محمد البدوي[٧] من مواليد أمدردمان ١٩٠٥ بأنها ما زالت تذكر الديوان الذي خصص للدرس داخل الحوش " أي منزلهم" وبالقرب منه مجموعة قطاطي مبنية بالقش وهي مكان سكن الضيوف الذين يفدون من السودان أو خارجه لتلقي العلم على يد والدها الشيخ البدوي والتفاكر معه في شئون الدين".

وحديث الراوية يؤكد ما قاله ونجدإن أمدرمان في بداية تأسيسها كانت مبنية من القش، ومجموعة القطاطي تمثل ما تبقى منه، أما مباني الجالوص أو الطين، فقد جاءت كنتيجة طبيعية لتحول أمدرمان من مكان مؤقت إلى مكان استقرار، لقد عرف النظام الإداري في عهد الخليفة عبدالله التعايشي جهة متخصصة في العمارة عرفت بمصلحة العمارة[٨].

---

(1) F.R.Wingate, the Mondisn and the Egypt.

(2) Hashim EL dcdrri. Op, cit. P. 93-96.

(٣) محمد سعيد القدال ن مصدر سابق، ص ١٠٥.

(٤) محمد إبراهيم حتنكابي، "من عبدالقيوم صاحب البوابة" جريدة الرأي العام، العدد الخامس عشر، الاثنين ١٩٩٦/٩/٣٠م.

(٥) إسماعيل عبدالقادر الكردفاني، سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢م، ص ٣٩٣.

(٦) مكي شبيكة، تاريخ شعوب وادي النيل، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ص٧٠٨.

(٧) الأرشيف شريط رقم د أ أ/٢٧٦٦. أم درمان.

(٨) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم، مصدر سابق، ص ١٠٥.

وهذا يدل على اهتمام الخليفة بعمارة المدينة وتأسيسها وقد أعاد الخليفة تخطيط الشوارع عام ١٨٩٤ لتقوم شوارع مستقيمة بدلاً من الشوارع المتعرجة الضيقة[١].لنظرته لها بانها عاصمة خليفه المهدي٠وذلك لابراز جهوده ٠

وقد تميزت أمدرمان في فترة المهدية وما تلاها من فترات بوجود شكل من أشكال العمارة وهو الحوش٠ والحوش كما ذكر "أبو سليم" هو اسمه البارز في أنماط العمارة المختلفة في أمدرمان سواء أكان المبنى منزلا خاصاً أو مصلحة من المصالح العامة[٢].

وقد اختصت بعض المساكن بتسمية "الحوش وهو غير ما تحمله التسمية من المعنى لعمارة الشكل كما أوضحها أبو سليم". بل تعني طرازاً محدوداً من العمارة يعكس نمطاً معيناً من الحياة في تلك الحيشان" جمع حوش" وهذه الحيشان متميزة عن غيرها من المنازل بتداخلها وتركيبها وكبر مساحتها. وهي غالباً ما تكون ملك لرجل دين عالم أو شيخ قبيلة. وفي داخل الحوش نجد جمع من البشر يكونون لأسرة ممتدة، التي تجمع الأبناء وأبناء الأبناء والحفدة، كل هذا الجمع يسكن في داخل الحوش.

ويوجد نوعان من الحيشان، النوع الأول منها يتكون من حجرة بها باب يفتح على الشارع وتكون هذه الحجرة عادة للاستقبال وتسمى "الدهليز". ويتصل الدهليز بممر يربطه من الخلوة، والخلوة هي الحجرة التي ينقطع فيها الشيخ أو الفلكي للعبادة والتفقه في الدين. ويفصل هذا الجزء من الحوش حائط يليه قسم خاص بالنساء، يتكون من عدد من الحجرات مربعة الشكل ألحق ببعضها قطيع[٣]، يستعمل كمخزن ويتميز هذا الجزء من الحجرة بالتهوية المتجددة. وللحجرة نوافذ صغيرة مستديرة أو مربعة الشكل في أعلى الجدران وتسمى "طاقات" مفردها "طاقة". وهذا التصميم للنوافذ يجعل من الحجرة مكاناً بارداً في زمن الصيف ، أما الشكل الثاني من الحيشان فهو عبارة عن حوش في ا داخله ديوان للدرس، يدرس فيه التلاميذ الذين يتلقون العلم عند الشيخ أو الفكي. ويمكن أن يكون هذا الديوان نفسه الخلوة التي ينقطع فيها الشيخ للعبادة. وعلى مقربة من الديوان توجد مجموعة مساكن للضيوف ويفصل هذا الجزء من الحوش حائط، يليه قسم خاص بالنساء به حجرات مربعة الشكل تسمى الواحدة "دانقة" ويكون المخزن ملحقاً بحجرة الزوجة الكبرى للشيخ أو الفكي. أما بقية الحجرات فبدون مخازن.

وبالنظر إلى هذين التصميمين من الحيشان، نجد أن النموذج الأول يشبه إلى حد بعيد تصميم المنازل القديمة في مدينة بربر في شمال السودان[٤]. أما التصميم الثاني فهو مصمم على نمط الحوش في غرب السودان "مدينة الفاشر"[١] ووجود هذين

---

(١) محمد سعيد القدال، السياسة الاقتصادية للدولة المهدية، ص ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(٣) ذكر يوسف، حسن في كتاب الطبقات لابن ضيف الله" أن القطيع أو القاطوع حجرة صغيرة الحجم، مستطيلة الشكل مجاورة لحجرة أخرى ولا منفذ لها إلا عن طريق تلك الغرفة. ويستعمل القطيع مخزناً ويوجد حتى يومنا هذا في ديار الجعلين، يعرف في جهة بربر بالرقون". ص١٠٩.

(٤) قامت الباحثة بزيارة إلى منطقة أمدرمان ووجدت تصميمات هذه المنازل والحشيان وذلك في أكتوبر ١٩٩٦م، كما ذكرها الرحالة بوركهارت عندما زار بلاد النوبة والسودان لصق هذه الحيشان في بربر، انظر جون لويس بوكهارت رحلة بوركهات إلى بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوس، مطبعة المعرفة، ١٩٥٩م، ص ١٧٤.

النمطين من الحيشان يوضح مدى تباين التركيبة السكانية في أمدرمان وتعدد عناصر تكوينها. وقد انعكس ذلك في وجوب أسلوب حياة اجتماعية بعينها.

ومن السمات الواضحة في نظام العمارة في أم درمان تداخل المنازل مع بعضها البعض وذلك بوجود أبواب داخلية تربط مع بعضها البعض وهذا النوع من الأبواب يسمى" النفاج"[٢].

وغالباً ما تستعمله النساء وذلك لسهولة إتصاله[٣]، إضافة إلى حرية الحركة للتنقل من منزل لآخر وقد لعب النفاج دوراً اجتماعياً كبيراً حيث سهل إقامة الحياة الاجتماعية الوحدة التي عهدتها القبائل في أماكنها الأساسية حيث تسكن الحي كله نفس القبيلة[٤].

ولقد الظروف السياسية الاقتصادية دوراً كبيراً في بقاء العمران بشكله الذي نجده حتى الآن كما في مناطق أمدرمان القديمة ففي عهد الخليفة عبدالله التعايشي كان أعلى منزل في أمدرمان هو منزل الخليفة نفسه، يطل من فوقه على كل أمدرمان لمراقبة أحوال المدينة ولم يكن مسوحاً بناء منزل من طابقين حتى لا يتعارض ذلك مع الواقع الاستراتيجي لمنزل الخليفة عبدالله التعايشي. ولقد تميزت العمارة بالبساطة في البنيان وكلُ ما كان في النفوس من أثر لتعاليم الإمام المهدي فقد كان يرد في كل خطبة، زهد الدنيا. وكان يقول: "أنا أخرب الدنيا وأعمر الآخرة" ونظام الحيشان في أمدرمان جعل السكن فيها بأعداد كبيرة ظاهرة، فنظام الحوش يمكن أن يستوعب مجموعة ثلاثة أجيال وكانوا يعيشون في مودة وتآلف . وهذا ما جعل أمدرمان تكتظ بالسكان، وأن لا تتوسع توسعاص أفقياً يتجانس مع الزيادة التي تطرأ على عدد السكان[٥].

بيت الخليفة عبدالله وحرس الملازمين:

كان من ضمن التطور الذي حدث لأمدرمان في عهد الخليفة ما قام به من إصلاح لبيته والذي ما زال متحفاً يزار حتى الآن. فنجد هذا البيت قد شيد كما عرفنا في الناحية الجنوبية لضريح المهدي، والذي يتصل بالجامع الكبير. وهو عبارة عن حوش كبير محاط بسور ضخم مبني بالطوب الأحمر ومن الداخل محاط بسور من الطين. قسم نواحيه إلى مباني صغيرة متلاصقة وهي أقرب لمباني المسجد حيث يسكن فيه أفراد عائلته المقربون، وفي الناحية الشرقية نجد بيوت زوجاته وأماكن خصيانه ومخازنه الخاصة وفي تلك الناحية الشرقية نجد هناك باب ضخم من الخشب لا يتجاوزه إلا من هم مسموح لهم بالوصول إلى غرفة الخليفة الخاصة وهناك مكان للاستقبال الرسمي. أما الأجزاء الأخرى من المسجد، توجد بها أبواب

= =

(١) بقيع بدوي محمد، التشكيل في أعمال الإبرة في أمدرمان، الطاقية، المصدر السابق، ص٣٧.

(٢) هو باب صغير يفتح في الحائط الفاصل بين كل بيتين حيث يمكن للشخص الذي يدخل من أول الحي أن يمر بكل المنازل دون الحاجة للخروج بالشارع.

(٣) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص ٩٦.

(4) Hashim EL Bcdrri The Evolution of Omdurman P. 93-96.

(٥) عصمت حسن زلفو كرري، المصدر السابق، ص ١٠٢.

obeikandi.com

وهناك دهليز وردهة وغرفتان وباب لا يقفل لأنه يؤدي إلى المخدع. وقد كان هذا المنزل يمتاز بالبساطة الكلية والبعد عن الزخرفة في الغرف فقط العناقريب[1] الممتدة في كل غرفة. أما غرفة الخليفة فقد كانت مزخرفة بكل ما يستطيع الحصول عليه من زينة وتذويق في السودان. فقد كانت تلك الزخارف والزينة من "غنائم الخرطوم" كما كانت أرض الغرف مفروشة بالسجاجيد وفوقها المراتب النظيفة وأغطية الحرير والوسائل الموشاة، والستائر ذات الألوان والأنسجة الجميلة[2].

كما كانت للخليفة عبدالله بجانب بيت الخلافة بيوت أخرى في الناحية الشمالية والجنوبية من أمدرمان ولكنها كانت مبنية بناء بسيط وكان الغرض منها استعمالها كأماكن للاستراحة وللمقربين إليه وعندما يرسل بعثات من جنوده إلى الجهات المجاورة لأمدرمان، أو عندما يخرج لاستقبال الجنود القادمين حديثاً لأمدرمان[3].

وإذا ما قورنت هذه المنازل للخليفة عبدالله التعايشي بما كان في أول سنين حياته الرسمية تلك الحياة التي بدأت بالبساطة كما أراد لها المهدي نجد أنها قد اختلفت وأصبح الخليفة شديد الميل إلى الزخرفة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وذلك يدل على أنه قد بدأ يتحرر قليلاً مما كان يدعو إليه المهدي.

وقد يلتمس له العذر في ذلك ولا سيما أنه كان يمثل السلطة الحاكمة وأن بيته كان بمثابة القصر الملكي فلذا كان من الضروري إليه أن يهتم به بدرجة توحي لمن يدخل اليه بالعظمة والهيبة للحكم والخلافة المهدية وإن كان ذلك يتنافى مع تعاليم المهدي . أما منازل الخليفتين محمد شريف وعلي ودحلو اللذان يسكنان في ذلك القطاع كما أشرنا إليه فإن منازلها فقد كانت عادية وعبارة عن قاعات متصلة بين كل واحدة والأخرى رواق صغير وهي بعيدة عن الزينة من ناحية أخرى[4].

أما منزل ابنه عثمان شيخ الدين فقد كان من الناحية الشرقية من منزل والده وكان مفروشاً بنفس ما فرش به بيت أبيه ولكنه كان أفخم منه، وكان أساسه فاخراً توجد به النجفات النحاسية المدلاة من سقوف الغرف بالاضافة لوجود حديقة كبيرة وسط المنزل ينقل إليها الطمي من النيل يشتغل فيها يومياً مئات الرقيق السود.

كما كانت توجد بالقرب من منزل الخليفة منزل أرامل المهدي وبعض أقاربه الذين بنيت منازلهم بالقرب من الجامع الكبير ورحلهم الخليفة عبدالله لمنطقة أمدرمان شمال ود نوباوي بعد فتنة الأشراف.

ووضع عليهم الخليفة عبدالله على أرامل المهدي حرساً خاصاً ومنع زيارتهن حتى لا يتزوجن وكان ينفق عليهن ولا يسمح لهن بالخروج[5] بحجة الخوف عليهن أو ربما أن خروجهن سوف يعرضهن للقيل والقال في ذلك المجتمع الذي كان يترصد كل صغيرة وكبيرة.

---

(١) قامت الباحثة بزيارة بيت الخليفة في أمدرمان في أكتوبر ١٩٩٦م، وشاهدت ما به من الاثاث لتلك الفترة.

(٢) سلاطين باشا: السيف والنار. المصدر السابق، ص ٢٢٨- ٢٢٩.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٣٢٩.

(٤) سلاطين ، باشا، المصدر السابق، ص ٣٢٩.

(٥) نفسه، ص ٢٣٠.

كما كان هناك منزل يعقوب أخو الخليفة بالقرب منه والذي أخذ يحذو حذوه ولم يكن هذا غريباً فقد لحقه الجاه والسلطان من أخيه.

وضع الخليفة عبدالله إلى جانب منزله مكان فسيح للحرس "الملازمين" وكانت هناك دار مسقوفة بقش كاستراحة للخيل وقد وضعت هكذا لما يقوم به الخليفة من جولات سريعة داخل المدينة.

كان يوجد في هذا النطاق بيت الأمانة " الترسانة" أو "دار الحربية[1]" المكونة من بناء ضخم تفصله ساحة كبيرة من بيت يعقوب وقد جمعت فيه المدافع والبنادق والذخيرة وكل ما يختص بالحرب ويوجد في البناء نفسه خمس عربات كانت ملك الحكام السابقين والبعثة الكاثلوليكية وقد عنى الخليفة عبدالله عناية فائقة بحراسة ذلك البيت فوزع على مسافة قصيرة حراساً "ديدبانان" وأعد لكل منهما ا كشك صغير ومهمة هؤلاء هي منع جميع الخارجين عن هيئة الجيش من الدنو إلى الترسانة.

وكان في الناحية الشمالية للترسانة مباشر بناء لحفظ رايات الأمراء المقيمين في أمدرمان إلى جانب ذلك البناء محل نصف دائري يبلغ ارتفاعه نحو عشرة ألف قدماً يصدع إليها الصاعدون بسلالم " مدرجة" لحفظ أبواق وطبول الخليفة. وإلى ناحية الشرق قليلاً يوجد مخزن الخراطيش والأسلحة الصغيرة[2].ويعد هذا نوع من أنواع التقدم العمراني وتكييف للإمكانيات المتاحة لهذه الدولة الناشئة.

قبة المهدي:

ومن ضمن المعالم البارزة في المدينة قبة الإمام المهدي وما لها من أثر عظيم في نفوس الناس عامة والأنصار خاصة ونظرتهم إليها نظرة تبرك وخشية ولاسيما أن فيها قبر المهدي.

تلك القبة التي ميزت مدينة أمدرمان بالطابع المهدوي لوجود قبر المهدي في هذا المكان داخل هذا المبنى الذي كان بمثابة الكعبة لبعض الأنصار كما تذكر بعض المصادر التي تناولت ذلك الموضوع. وذلك للمكانة الدينية والروحية التي أضفتها على المدينة . وقد توسطت القبة المدينة وكان قربها الجامع الكبير الذي هو المحور الأول البارز في المدينة[3].

وقد حرص الخليفة عبدالله على مظهر العاصمة الديني فلذا اهتم ببناء القبة ومسجدها[4] وكانت المواد التي بنيت بها القبة من هدم المنازل في الخرطوم المبنية بالطوب. وقد بنيت في عام ١٣٠٦هـ وقد بلغ إرتفاعها خمس أزرع طولاً وأربعة أزرع عرضا وصار البناء متمناً إلى ثمانية جوانب. وكان يعلو القبة هلال من وسطه يرتفع رأس حربة كبيرة وربما دلت تلك الحربة على الروح الجهادية تمض بها الثورة المهدية. ولقد اختلفت الآراء حول بناء القبة وغرض الخليفة عبدالله التعايشي من تشيدها بأنه كان يهدف لإشباع رغبته في أن يرتفع مركزه عند الأنصار وأنه لم يكن خالص النية في ذلك العمل وإنما كان يرجو

---

(١)وهو ما يعرف حاليا بدار الرياضة بأمدرمان .

(٢) سلاطين باشا، المصدر السابق، ص٣٣.

(٣) محمد إبراهيم أبو سليم، المرجع السابق، ص ٨٥- ٩١.

(٤) دكتور حسن شحاته إمارة الإسلام في المهدية، الطبعة ، دار المعارف، ١٩٨٥م، ص١٨٠.

تدعيم مركزه بين الأنصار والمهاجرين[1] ولكننا لا نوافق ذلك لأن ما قام به الخليفة من الجهد في دعوة العمال من العمالات المختلفة للهجرة إلى أمدرمان لقبة المهدي وهذا يوضح غرضه من تلك الدعوة التي كانت من أجل المشورة وتجديد العهد له موضحاً لم أهمية بناء ذلك الضريح.

الطـــرق:

تعتبر من الأهمية بمكان والحديث عنها لما تنطوي عليه الحاجة لكل مدينة أو قرية مهما كانت ظروف تلك المدينة أو القرية الاقتصادية أو السياسية أو غيرها. وتذكر المصادر إنشاء الخليفة عبدالله للشوارع وتخطيطها أما بقية أنحاء المدينة فكانت عبارة عن منحدرات ومنعطفات. وقد قام الخليفة بهدم بعض المباني الكثيرة ولم يدفع تعويضات لأصحابها. وكان ذلك في سبيل شوارع نظيفة بغض النظر عما يصيب الناس من هدم منازلهم دون تعويض يذكر[2].

فقد كانت تلك الطرق معالم بارزة في المدينة وقد اتخذ الجامع الكبير نقطة البداية للشوارع الرئيسية والاتجاهات حيث امتد أحد الطرق شمالاً وسمي بدرب الهجرة. والذي أطلق عليه فيما بعد بشارع الهجرة. وفي الناحية الغربية هناك طريق آخر للجامع جنوب الصحراء حيث تقام استعراضات الخليفة كل يوم جمعة وقد عرف بدرب العرضة والذي كان يستعرض فيه الجيش كل أسبوع[3].

أما الطريق الثالث فهو يمر ببيت الأمانة والكاره حيث تتجمع البعثات المتجهة جنوباً وغرباً حيث ترسو السفن المتجهة لأعالي النيل وقد عرفت تلك البقعة بهجرة القصير.

وهناك طريق على شاطىء النيل الرئيسي إذ كانت تسافر منه القبائل المتجهة لحدود الحبشة[4]وقد بدأ تخطيط تلك الشوارع في عام ١٨٩٤م وقامت شوارع مستقيمة بدلاً من الشوارع المعوجة[5].

كما كان من المعالم الهامة في المدينة سجن الساير نسبة لإدريس الساير الذي كان يدير السجن. ذلك السجن الذي كان مصدر فزعا وخوف في نفوس الناس جميعاً والذي كان قائماً في الناحية الجنوبية الشرقية في أمدرمان على مقربة من النيل وهو محاط بحائط ضخم[6] وكان به عدد من المسجونين السودانيين المغضوب[7] عليهم أمثال شيخ قبيلة الجمع الكبير ومن هناك من الأجانب أمثل نيوفولد ، ليتون، وخليل المصري الذي اتهم بالجاسوسية.

---

(١) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم، مصدر سابق، ص ٩١.

(٢) سلاطين باشا، المصدر السابق، ص ٣٣١- ٣٣٢.

(٣) نعوم شقير: المصدر السابق، ص ١١٠.

(٤) ب م هولت: المصدر السابق، ص ٢٦٨.

(٥) مخابرات ٣٦ ملحق، ٣- ٤/مارس ١٨٩٥م.

(٦) سلاطين باشا ، السيف والنار، ص ٢٣٩.

(٧) نفس المصدر، ص ٢٣٠.

أما المقابر فقد كانت تقع في وسط المدينة مما أدى لتذمر السكان من الروائح المنبعثة منها فأمر الخليفة بترحيلها إلى خارج المدينة[1].

وقد وصف روزنيولي المدينة عندما قدم إليها من الغرب جموع الأنصار بقوله "تحولت طابية أمدرمان القديمة إلى معسكر ضخم قد يبلغ طوله إلى أكثر من ستة كيلومترات. وقد لاحظنا عدداً ضخماً من القطاطي والتي شيدت من غير عناية وأقيمت كيفما أتفق بأنها بنيت بغير تخطيط. ولما جاءت سنة ١٨٨٨م كانت أمدرمان قد توسعت بمقدار كيلومترين نحو الشمال وبلغت جبال كرري وضمت نحو ١٢٠- ١٣٠ ألف نفس جاءوا من كل أنحاء السودان وتمثلت فيهم أنماط مختلفة من البشر. وأن عدداً ضخماً من القطاطي والتي شيدت بغير عناية كانت تملأ امدرمان وأن الشوارع ضيقة ومعرجة وغير مخططة ". والمعلوم أن أمدرمان في توسعها لم تبلغ مباينها جبال كرري بقدر ما يوحي بأن الامتداد لأمدرمان أيام الدولة المهدية كان طولياً وفي محاذاة النهر إذن هذا التصور يؤكد أن الشوارع كانت ضيقة ومتعرجة كما ذكر دوزينولي(٨) وهذا يعني أيضاً عدم وجود مساحات واسعة أو مسافات بين المباني . وقد كان تعداد السكان آنذاك يتراوح ما بين ١٢٠- ١٣٠ ألف وهذه النسبة تعتبر قليلة جداً إذا ما قورنت بنسبة سكان أمدرمان الحالية. وقد كانت المنطقة الغربية لأمدرمان أيام الدولة المهدية "منطقة أمدرمان الجديدة وحمد النيل حالياً" عبارة عن خلاء إلى وقت قريب تستعمل في أغراض الزراعة. وقد وصفتها الراوية شامة عبدالعزيز بأنها بلاد أجدادهم أي أراضي أجدادهم للزراعة ٠وكانوا يزرعون فيها الذرة التي تعرف "بالفيتريه حيث عرف المكان بخورالفيتريته" أيام الخريف. لهذا السبب لم تكن تصلح للسكن وايضا كما ذكر الراوي. سعيد سعد النور[2]

ومما تقدم يتضح لنا أن السكنى كانت بمحاذاة النيل لسهولة جلب الماء خاصة وأن المدينة وقتها لم تدخلها شبكة "مواسير المياه" فكان الاعتماد على النهر أو الآبار لأن بعض الآبار كانت مالحة وغير صالحة للشرب خاصة المنطقة الجنوبية من أمدرمان. وعليه فلا غرو أن امتد التوسع طولياً إلى جبال كرري خاص وأن البناء غير منظم ويضف روزنيولي [3]" بأن سكان أمدرمان في ذلك الوقت هم خليط من العناصر والقبائل الموجودة في السودان إضافة إلى المصريين والهنود وبعض العرب من مكة وسوريا والأغاريق وإيطاليين وترك وأثيوبيين". ولعل أكثر هذه الأجناس استمرارية في سكن أمدرمان حتى الآن هم الهنود والمصريين اللذين عرفوا " بالمسالمة" بالإضافة إلى القبائل السودانية٠

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٢) روايات شفاهية من بعض اللزين عاصروا تلك الفترة(شامة عبد العزيز وعمي سعيد سعد النور رحمها الله)

(٣) روزنيولي نفس المصدر٠

مشكلة الأشراف وأثرها في تصفية نفوذهم:

كانت مشكلة الأشراف من المشاكل أدت إلى تصدع الوحدة الوطنية والتي بدأت بتوجس بعض الشخصيات خيفة الانتقام من الخليفة عبدالله لتوليه زمام الحكم. وكان أول هؤلاء أحمد سلمان أمين بيت المال الذي كان المحرك الفعلي لفتنة الأشراف، فقد كان يخشى أن ينتقم منه الخليفة عبدالله بسبب امتناعه في حياة المهدي من تقديم المساعدة للمساكين من أبناء الغرب أهل الخليفة وإغداقه على الأشراف أهل المهدي ومن الشخصيات التي ناصبت الخليفة عبدالله العداء محمود عبدالقادر ابن عم المهدي الذي رفض طلب الخليفة بجمع الغلال من كردفان. لم يكن محمد خالد زقل مطيعاً لأوامر الخليفة عبدالله منذ عهد المهدي رغم تدخل المهدي وأمره له بالطاعة وللأوامر الصادرة من الخليفة[١].

أيضاً لم تكن العلاقة حسنة بين الخليفة محمد شريف حامد والخليفة عبدالله أيام المهدي مما جعل المهدي يبعد بينهما في العمل والاتصال المباشر مع الخليفة عبدالله في أي موضع وجعل الخليفة علي ود حلو وسيطاً بينهما[٢]. وعند وفاة المهدي توسعت دائرة الخلاف بين الخليفة عبدالله والأشراف وخاصة بعد أن قضت على نفوذ الأشراف في الغرب بإرساله محمد خالد زقل بأن يسلم الرايات ويعود لأمدرمان[٣]. مما زاد الموقف سوء في أمدرمان وجعل الأشراف يعلنون تحديدهم للسلطة ويجاهرون بالعداء ويعملون على التخلص من الخليفة[٤] ولقد سعى الخليفة جاهداً لأن يتفاوض مع الثوار ولانه كان يخشى بأن تعم الثورة والسخط في أمدرمان والتي كانت بؤرة للإشاعات فعمل على إخماد الثورة المسلحة ضده[٥] ووجد الخليفة محمد شريف نفسه مضطراً إلى مسايرة رأي الأغلبية، ووقع الخليفة علي ود حلو على منشور البيعة الذي وزع على الأقاليم[٦].

وتجدر الإشارة إلى أن الخليفة عبدالله كان ينظر إلى أهل المهدي نظرة قداسة رغم مواقف الخليفة محمد شريف وطمعه في الاستيلاء على السلطة، بل أن الخليفة عبدالله سعى إلى توثيق العلاقة بين أسرتة وأسرة المهدي برباط المصاهرة[٧] وقد روى أن الخليفة عبدالله اقترح أن تتم عملية مصاهرة واسعة بين أولاد البلد وأولاد الغرب يتم فيها تزويج ألف وخمسمائة شاب وشابة من كل الطرفين لتحقيق الامتزاج العنصري بين الفئتين، ولكن هذا الاقتراح لم يجد تجاوباً من أولاد البلد[٨]. وفي اعتقادي إن صحة هذه الرواية فربما قد قصد بذلك أن تذوب الجفوة والأحقاد التي كانت بين الطرفين وخلق نوع من التقارب بينهما بتلك المصاهرة.

---

(١) كتاب منشور المهدي، جمع وتحقيق أبو سليم، منشور رقم ٢١، ث ٨٣.

(٢) منشورات المهدي، الجزء الثاني.

(٣) مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٣٦٤.

(4) Statin: OP. cit., 384.

(٥) عبدالله محمد أحمد حسن، جهاد في سبيل الله، الخرطوم، ١٩٦٥م، ص ١٢١.

(٦) كتاب منشورات المهدية، جمع وتحقيق، دكتور محمد إبراهيم أبو سليم، منشور رقم ٢١، ص٨٤.

(٧) نعوم شقير، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٨) عبدالوهاب أحمد الحاج الأمين سيف المجاهدين الحاسم في إقناع الملحدين "مخطوطة" ج، ص ١٤٤، دار الوثائق القومية، الخرطوم.

obeikandl.com

وتأكد للخليفة عبدالله أن القادة الحقيقين لفتنة الأشراف هم نفس الأشخاص الذين ناصبوه العداء أيام المهدي، وقد اعترف أحمد ود سليمان بعد ضبط رسالته لمحمد زقل أن الخليفة أن الخليفة محمد شريف لم يكلفه بالكتابة لمحمد خالد زقل للانضمام بجيشه إلى حركة الأشراف وإنما فعل ذلك من تلقاء نفسه[1] ولعل الخليفة عبدالله أحسن بخطوره هذه الفتنة على وحدة البلاد وخشي أن تستغل بعض قبائل الغرب التي لا زالت على طبائع النهب والسلب هذه الفتنة فتقوم باستباحة أموال وممتلكات الناس في أمدرمان وتعود إلى مناطقها، ولهذا تصدى لهذه بحكمة وتروى مستخدم سياسة اللين والمهادنة التي عرف بها في مثل هذه المواقف لمعالجة ذلك التمرد خوفاً من انطلاق النار. وقد كللت مساعي الخليفة على ود حلو بناء على رغبة الخليفة بنجاح، وتم الوفاق بين الفريقين، ولقد اندهش يعقوب أخ الخليفة وأعمامه عندما شاهدوا الخليفة يعانق الخليفة محمد شريف وهما يبكيان رغم معرفة الخليفة بما فعله الخليفة محمد شريف حامد[2]. فلا غرو فهذه هي التربية المهدية التي غرسها محمد المهدي في نفوس أنصار لا حقد ولا كراهية، بل تسامح وتصالح ومحبة بين الخلفاء والأنصار عموماً، فقد كان المهدي يردد دائماً عبارة " الخليفة عبدالله وإخوانه الخلفاء[3]" وإذا اتفقنا مع هذا الرأي بأن الخليفة عبدالله كان يعمل بتربية المهدية التي تعلمها فالسؤال المطروح هنا لماذا لم يتم العفو عن الثوار طالما أنه كان يقتدي بروح المهدية ويعمل بها؟

وفي اعتقادي أن الخليفة شريف حامد قد عرف بورعه وتدينه إلا أنه منازعته للخليفة عبدالله في السلطة التي منحها له المهدي جلبت عليه ذلك الوبال . فلو احتفظ كما يرى البعض بعلاقته الودية مع الخليفة عبدالله لنال من المقام الوظيفي والوضع الاجتماعي والعائد المالي أكثر مما سعى إلى تحقيقه بقوة السلاح، ولجنب نساء المهدي وأولاده وأهله ضيق العيش، ولظل أقرباء المهدي محتفظين بمناصبهم القيادية والإدارية والعسكرية التي كسبوها في أيام المهدي. ولهذا يأخذعليه انسياقه أمام المصالح الذاتية والأحقاد الشخصية وإقناعه بأنه أحق بتلك المكانة من الخليفة عبدالله. فكانت تلك الفتنة التي أضرت بالوحدة الوطنية ومزقت المجتمع السوداني إلى طائفتين كبيرتين هما أبناء النيل وأبناء الغرب مما ولد الأحقاد وأظهر الكراهية في النفوس[4].

قد كان على الخليفة أن يعفو على الخليفة محمد شريف والثوار توقيراً أو احتراماً لأهل بيت المهدي وحتى لا يتهم بنقض شروط الصلح التي وافق عليها أولاً. ولكن يبدو أن الخوف على مركزه وسلطته جعله يزج الثوار في السجن ومنهم الخليفة محمد شريف حامد وأحمد سليمان أمين بيت المال وفوزي محمومد بادي وأخيه محمود كاتب الخليفة، وأحمد النور كاتب الخليفة محمد شريف وصالح سوار الذهب وكبار الدناقلة وكذلك عدد من الجعليين الذين تحالفوا مع الأشراف في الجزيرة أمثال البدوي ود العريفي، وعمر الياس ومحمود حامد جفون ومحمد صالح وحامد مرزوق الشايقي. وعبدالباقي

---

(١) عبدالغفار محمد علي أحمد: الحركات الدينية المعارضة للمهدية، رسالة ماجستير مقدمة، الجامعة الإسلامية، ١٩٩٠، ص ١٥٣.

(٢) مكي شبيكة، السودان عبر القرون، ص ٣٧٦.

(٣) منشورات المهدية، جمع وتحقيق محمد إبراهيم أبو سليم.

(٤) أبو سليم، المصدر السابق.

الماحي وغيرهم ممن اشتركوا في الفتنة. حيث أرسلوا دفعات إلى عامل الخليفة الذاكي طمل في فشودة بحنوب السودان وتم قتلهم بالعصي الغليظة "النبابيت" وهي طريقة قتل يشترك فيها مائة جندي يضرب المحكوم عليه حتى يموت وتسمى " مطرة صبت"[١].

ولقد كانت هذه الفتنة بمثابة لفت نظر للخليفة أخيه يعقوب والذي قال قولته الشهيرة " لقد أيقظونا الأشراف بعملهم هذا" ولذا أخذ يهمس يعقوب وأعمامه في أذن الخليفة عبدالله بأن، خير من يحمي الدولة المهدية التي أوصاه عليها المهدي أهله التعايشة الذين قامت الدولة على أكتافهم، ويظهر أنهم كسبوا ثقته، فقد أذعن الخليفة لرأيهم فدعا أهله البقارة للهجرة إلى أمدرمان. ليحلوا محل أولاد البلد الذين تمردوا عليه ودخلوا في عصيان وعدم تعاون غير معلن ضد الدولة ظناً منهم أن ذلك كفيل بإسقاط حكومة الخليفة عبدالله التي كانت تفتقر إلى الكوادر المتعلمة المدربة على الإدارة والقيادة العليا، هذا وقد استجابت بعض قبائل البقارة لدعوة الخليفة بالحضور إلى أمدرمان بينما رفض زعماء تلك القبائل ترك مناطقهم والهجرة لأمدرمان.

سياسة التهجيـــــر:

قد دلت الوثائق أن الهجرة في عهد الامام محمد المهدي كانت طوعية دينية لكنها أصبحت في عهد الخليفة عبدالله سياسية إجبارية حيث كان الغرض منها حماية سلطة الخليفة عبدالله وقد كانت من أهم مصالح حكمه كما أن تهجير تلك القبائل والمجموعات كان لأسباب بعضها عام وبعضها خاص[٢].

وتذخر وثائق المهدية من الأوامر والنواهي التي تنظم عملية التهجير وأن بعضها يستدعي الانتباه لما تلقيه من ضوء على طبيعة حركة التهجير ووصول الآلاف من البقارة لأمدرمان[٣].

ويبدو أن الخليفة قد قصد سياسة التهجير هذه حفظاً للتوازن بينه وبين أولاد البلد الذين كان يقيم بين ظهرانيهم في عاصمتهم أمدرمان.

وقد ارتبطت هذه السياسة بأسباب عامة بالدولة وأسباب خاصة ارتبطت بالقبائل والمجموعات المعينة أو شخص الخليفة وفلسفته في الحكم إلى غير ذلك من العوامل والمؤثرات.

ورغم أن الخليفة قد طبقها لأهداف سياسية واضحة إلا أن هذا لا يعني أن ضرورات الجهاد قد انتفى تأثيرها[٤].

وأسبابها:

أن الدوافع التي كانت وراء سياسة التهجير لا يمكن النظر إليها بمعزل عنه الظروف والملابسات التي عايشتها الدولة المهدية في عهد الخليفة لذلك.

---

(١) محمد إبراهيم أبو سليم، الحركة الفكرية في المهدية، ص ٣٣.

(٢) عوض عبدالهادي، تاريخ كردفان في عهد الخليفة عبدالله ١٨٨٥- ١٨٩٨م الخرطوم ابريل ١٩٧١م، الفصل الأول، ص ٥٠، الثاني، ص ٨٢ الثالث، ص ٩٢ والرابع ص ١١٤.

(٣) مهدية /٢/٢٣/٢/٢٤/٢٠ صفر ١٣١٠.

(٤) أبو سليم الحركة الفكرية، ٣٦.

وتعود جذور تلك السياسة إلى عهد المهدي الذي طبقها لخدمة الدعوة والجهاد، أما الخليفة فقد طبقها لأهداف سياسية واضحة كما ذكرنا[١]. كما وأن الخليفة أراد أن يحتاط ضد الفئات التي لم تكن راضية على توليه السلطة[٢] وكان هذا غرضه الأساسي في عملية التهجير التي أراد أن يقوي بها مركزه في أمدرمان ضد الجعليين والدناقلة وأهل الجزيرة وغيرهم، لأنه كان غريباً بينهم.

لعل مما دفع الخليفة من إحضار أهله إلى العاصمة، أن أمدرمان كانت "كعاصمة للحكم" تقع جغرافياً في بلاد أعدائه التقليديين وبعدها عن مناطق سنده البشري الطبيعي في الغرب[٣].

كما أن سياسة الخليفة كانت تستدعي عزل الزعماء التقليديين وتهجير القبائل التي يشك في ولائها واستقلال الخلافات بين القبائل. والإقلال من سطوة قبائل البقاره والمسيرية وغيرها مثل والتعايشة وكبح مجماحهم والتخلص من بعض زعماء القبائل التقليديين عن طريق الوراثة[٤].

بالإضافة إلى رغبته في أن يتمتع أهله بما تمتع به سكان المدريات النهرية. وأن يشغل تلك القبائل التي عرف عنها حبها للفوضى وبذا يأمن جانبها وتكون تحت سيطرته[٥].

وقد يصعب القول بأن الخليفة استعمل حجة الجهاد كمجرد مبرر للتهجير، إذ أن الجهاد كان في الواقع من عوامل نفور القبائل من الهجرة إذا عانت من الحروب الكثيرة لأنها كانت تظن أن الجهاد سينتهي بعد فتح الخرطوم ووفاة المهدي[٦].

أما كون الهجرة أصبحت واجباً فإن هذا صحيح من الناحية الدينية بتعرض البلاد لغزو الكفار، وهذا يوضح لنا وجهاً جديداً لسياسة التهجير باعتبار أنها كانت في نظر الخليفة واجباً دينياُ لارتباطها بفريضة الجهاد، وخاصة أن المهدي أكد ذلك صراحة في مراحل الثورة الأولى[٧].

كما يرى هولت أن هذه السياسة كانت استمرار للسياسة التي بدأت في عهد المهدي خاصة بربط القبائل بالنظام وتحويلهم من مجموعات بدو صغيرة إلى جيش قبلي مستديم[٨]. ورغم ما قد نلمحه من تناقض في وصف الجيش بأنه " قبلي" إلا أن الفكرة العامة واضحة[١].

---

(١) أبو سليم، الحركة الفكرية، ٣٦.

(٢) عوض عبدالهادي، المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٣) عوض عبدالهادي، نفس المصدر، ص ١١٩.

(٤) ب . م هولت دولة المهدية في السودان، المصدر السابق، ١٨٨٥- ١٨٩٨.

(٥) ب م هولت دولة المهدية في السودان ، نفسه ، ص ٢١٧.

(٦) شقير جغرافية وتاريخ السودان، دار الثقافة ببيروتن ١٩٦٧م، ص ١٢٤.

(٧) أبو سليم، منشورات المهدية، الدعوة، ص ٢٢.

(٨) محمود عبدالله إبراهيم، ص ١٣، خطاب الخليفة إلى محمود ود أحمد.

فلقد أدت سياسة[٢] التهجير إلى سلسلة من الصراعات والحروب الداخلية المتعددة بين الحكومة والقبائل ويمكننا القول بأن هذا النزاع يمكن النظر إليه باعتباره صراعاً بين مركز الدولة وأطرافها. المركز يحاول فرض سلطته المركزية والمادية على أطراف الدولة التي تحاول جهدها لتفادي أثر هذا النفوذ عليها أو الحد منه خاصة أنها لم تتعود الخضوع لمثل هذا النوع من النفوذ، كما يمكننا أن ننظر إلى هذا الصراع باعتبار أنه نزاع بين الحكومة المركزية والمجموعات القبلية. وإن اتساع رقعة البلاد وبعد المسافات قد خلق نوع من التوتر الجذب والشد. كما أن ضعف نفوذ مراكز الإدارة الإقليمية التابعة للسلطة المركزية وطبيعة العلاقة بينهم وبين الخليفة سلبتهم روح المبادرة والحسم في تلك الظروف. وكان من عيوب الإدارة أنها ذات طابع شخصي فردي، إذا لم تكن هناك أسس نظرية ومنهجية يستند عليها النظام الإداري وتتحكم في طبيعة العلاقات بين الدولة والقبائل في الأقاليم. الأمر الذي نتج عنه الفشل في رسم وتخطيط السياسة فكان الحل الوحيد لمعالجة مشاكل الولاء هو تهجير القبائل قرب الخليفة.

تطبيق سياسة التهجير ورد الفعل لدى القبائل:

اتبع الخليفة كل الطرق الممكنة لتنفيذ هذه السياسة. وقد تراوحت هذه الأساليب بين الدعوة السلمية ومحاولة الإقناع وبين أقصى درجات العنف وبدأ الخليفة يدعو القبائل للهجرة بمحاولة التأثير عليها من الناحية الدينية. وهنا لجأ لمحاولة إقناع القبائل إلى الهجرة وضمن هذه الدعوة عنصري الترغيب والتهديد وحاول حمل القبائل على الهجرة بالتذكير بالجنة والنار[٣].

كما تورد بعض المصادر أن الخليفة قد أرسل سرا إلى القبائل يدعوها للحج لقبر المهدي، ورسم هؤلاء الرسل صور زاهية كما ينتظر المهاجرين من خير وحظوة وأخبروهم أن الخليفة يعتبرهم وحدهم أنصار الدين[٤].

ولكن واجهت الخليفة منذ البداية مشاكل عدة، وهي رفض التعايشة أهله للهجرة ولم تجدى الأساليب السلمية مثل رفع الزكاة عن الرزيقات والمعاليا الذين عارضوا هذه السياسة منذ عهد زقل.

وماطلت القبائل في تنفيذها حتى ضاق الخليفة بها فأمر باستعمال أقصى درجات العنف فكان الجيش الذي قاده عثمان آدم لإرغام التعايشة على الهجرة قوامه عشرة آلاف محارب[٥].

واتسمت مواقف بعض القبائل بنوع غريب من العناد مثل المسيرية الذين قال عنهم محمود ود أحمد " إن مسألة المسيرية هذه أخافتنا وخشينا منها لداعي إنهم مع كثرة الدعاية لهم من جنابكم للهجرة والترغيب وتكرار المعاهدة منهم بالحضور

= =

(1) Rehfisch. S. NRI bid. 15 p. 15.

(٢) محمود عبدالله إبراهيم، المرجع السابق، ص ١٦.

(٣) نفس المصدر، ص ١٧- ١٩.

(٤) عوض عبدالهادي، المصدر السابق.

(٥) مومس المبارك، تاريخ دارفور السياسي ١٨٨٢- ١٨٩٨م، قسم التاريخ والنشر جامعة الخرطوم، ص ٩- ٦٩- ٧٨.

obeikandi.com

إليهم لم يحصل منهم وفاء ولا نظر في العاقبة[١] ولم يكتف المسيرية برفض الهجرة بل عملوا على إعاقة هجرة القبائل الأخرى وشاركهم في ذلك الحمر.

وفيما يختص بتهجير أولاد البلد من كردفان اتبع الخليفة أسلوباً آخر: أمر الجوامعة بعزل وتهجير جميع أولاد البلد المقيمين بينهم إلى البقعة بجميع ممتلكاتهم. واتبع الخليفة أسلوباً مشابهاً حين أمر القبائل بأن تعوق حركة الكبابيش الموسمية وأن تمتنع عن التجارة معهم[٢].

وكان ذلك من السبل التي اتبعتها القبائل لتفادي إجبارها على الهجرة الهروب من ديارهم، بعيداً عن جيش الخليفة ومن القبائل التي فعلت ذلك الرزيقات.

واتصفت عملية التهجير بالقسوة، إذ أن تهجير التعايشة مثلاً كان عملية اقتلاع من الجذور، فغلى جانب العنف العسكري العادي أمر الخليفة بحرق قراهم حتى لا يفكروا في العودة[٣] وقد كتب إليه محمود ود أحمد" أن أمركم الكريم الوارد في شعبان بالالتفات لخراب دار التعايشة وأن لا نترك أحد يسكن بها وتنبيه كافة القبائل بذلك قد علم والحال أنها لا وجود لأحد بها ما عدا جهة طوال التي بها بني هلبة جماعة رحمة الله الوالي وقد حررنا لمحمود حمودة بالمرور عليها للتأكد من ذلك فأكد لنا صحته"[٤].

كانت هجرة القبيلة أحياناً لبعض القبائل بأن يسمح لها بالعودة إلى ديارهم بعد فترة أما القبائل التي كان يخشاها الخليفة حقيقة فإن تهجيرها كان يعني أن تترك ديارها بصورة مستديمة[٥].

وفي أمدرمان كان المهاجرون تحت السيطرة الكاملة للخليفة الذي كان يخضعهم لنوع من غسل المخ أثناء محاولته للتأثير عليهم بمختلف الوسائل ...

ويمكننا تلخيص ما حدث فيما يلي :

١- القبائل التي أرغمت على الهجرة ووجدت نفسها مضطرة للهروب لتفادي الهجرة زاد حقدها على الخليفة ودولته.

٢- طريقة تطبيق سياسة التهجير أورثت بعض القبائل مشاعر الحقد صعب تلاشيها.

٣- المجموعات التي تم تهجيرها مرت في طريقها بديار قبائل أخرى وعانت هذه الأخيرة من ذلك كثيراً.

٤- المجموعات التي تم تهجيرها ضيقت كثيراً على السكان الذين انتقلت إلى بلادهم ودفعتهم إلى مزيد من كراهية الدولة.

٥- الذين هربوا من التهجير اصطدموا بمجموعات أخرى من المناطق التي هربوا إليها.

---

(١) عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن، المصدر السابق، ص ١٧٢.

(2) P.M. HOLT. The Mahadia State in the Sudan Op. 166.

(٣) خطاب من محمود ود أحمد خاص بموضوع المسيرية.

(٤) ب م هولت، المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٥) ب م هولت، نفس المصدر.:

obeikandi.com

٦- استعمال القوة في التهجير ساعد على تدعيم الطابع العسكري البقيض للدولة مما صبغ الحكم بلون استبدادي قاتم.

ومن المسائل الهامة أن التهجير بلور الصراع بين أهل البحر وأهل الغرب وجسده في مركز الدولة نفسه لذلك أصبحت صورة الشقاق أكثر وضوحاً، إذ أصبحت الدولة تفتقر إلى الوحدة والتكامل في مركزها نفسه. وكان ذلك يعكس خللاً أساسياً في النظام كله بسبب ما وجد من تنافر بين القوى الرئيسية على مسرح السياسة فيه وكان معنى ذلك أن يستمر الخليفة في إهدار طاقاته في محاولاته لحفظ التوازن في مركز الدولة علماً بأن القبائل كانت تفتقر إلى النضج السياسي وحملت معها إلى مركز الدولة تقاليد وقيم قبيلة تناقض ظروف الحياة السياسية في العاصمة.

اولا:- أن كلمة تهجير التي ترد في المراجع العربية لا تعطي وصفاً صحيحاً لما حدث. أما المصادر الإنجليزية فتميل إلى كلمة Transier ولكنها أيضاً غير ملائمة إذ أن كلا الكلمتين قد تعنيان عملية سلمية مثل تهجير النوبة من شمال السودان إلى منطقة خشم القربة، وقد تكون العملية مرتبطة بظروف طبيعية أو بظروف اقتصادية أو اجتماعية معينة أو سياسية ولكن يتم هذا برضاء المهجرين بل ربما باختيارهم كما حدث في تقسيم شبه القارة الهندية وقيام دولة باكستان. وقد يكون الغرض من التهجير أساساً مصلحة المهجرين. وكلا الكلمتين لا توحيان بالضرورة بأن العملية قد اكتنفها أي نوع من العنف فرض ترحيل ضد رغبة الأفراد والمجموعات المعنية ولو كان ذلك دون اللجوء إلى العنف المادي . ولكن أقرب الأوصاف إلى طبيعة تلك السياسة التي طبقها الخليفة نقول عنها أنها " عملية ترحيل جبرية" وإن استعمال كلمة تهجير لوصف هذه السياسة مسألة اصطلاحية ولعلها خير ما وجد لوصف هذا العمل. لأن الترحيل في الغالب كان ضد رغبة من تم ترحيلهم.

ثانياً: كان العنف وسيلة رئيسية لهذه العملية.

ثالثاً: هذه السياسة كانت تهدف لمصلحة المجموعات التي فرضت عليها بل أضرت بها من نواحي معينة.

وهذا يؤكد لنا فشل الخليفة في ممارسة الدرجة الكافية من التأثير المعوي على القبائل سواء من الناحية الدينية أو السياسية.

نتائج سياسة التهجير:

ترتبت على هذه السياسة نتائج شملت النواحي السياسة والاقتصادية والاجتماعية وقد انعكس تأثير هذه النتائج على الدولة ككل كما انعكس على المجموعات التي تم تهجيرها وعلى الأقاليم التي هاجرت منها والتي هاجرت إليها.

وكان من أوجه الازدياد في نفوذ البقارة أن تولوا معظم المناصب القيادية الهامة في البلاد[1].

٣- ورقم أن هجرة البقارة لم تكن تعني دعماً كاملاً لموقف الخليفة من جميع النواحي، إلا أنها أعطته نوعاً من الاطمئنان جعله يحاول إرضاء أهل البحر ببعض المناصب بعد هزيمة النجومي[1]. وأهمية هذه المنطقة أن توضح إلى أي مدى كان الخليفة رغم ظاهر قوته – أسير لموازين القوى داخل الدولة.

---

(١) أبو سليم الحركة الفكرية، المصدر السابق، ص٢٦.

obeikandi.com

٤- وقال البعض أن قوة التعايشة وصلت حداً جعلهم يسيطرون على الخليفة وأنهم كونوا " مجلساً للأبهات" من كبارهم والمسنين منهم "كان هو الحاكم الحقيقي لهذه البلاد" واستطاع أن يملي أرادته على الخليفة في أغلب الأحيان[٢]. وليس غريباً أن يقوى نفوذ التعايشة بعد هجرتهم إلى أمدرمان ولكن يستبعد وصول هذا النفوذ مرحلة التحكم في الخليفة وأن يكون مجلسهم هو " الحاكم الحقيقي" بسبب ما نعرفه عن شخصيته وتفرده بالسلطة وغيرته على مركزه.

لقد أثرت هذه السياسة على موقف الخليفة كقائد ينبغي أن تستند زعامته على قاعدة عريضة تتخطى حدود التعصب القبلي خاصة وأنه كان خليفة المهدي الذي وحد بين القبائل على أسس ليس من بينها الإنتماءات القبلية. لقدأعطت تلك السياسة انطباعاً بأن الخليفة كان مجرد زعيم قبلي تهمه مصالح أهله الذين يعتمد عليهم في بسط نفوذه. وكان الخطر الحقيقي أن حقد الناس على البقارة وعلى هذه السياسة أي أعداء للنظام وللمهدية ذاتها. فتعجلوا بنهايتها علماً بأن إصرار الخليفة على التهجير سبب له مزيداً من الخسارة من ناحية علاقته مع القبائل التي فرض عليها الهجرة، سواء أكانت قبائل الغرب أو غيرها، والواقع أن ما تشير إليه رواية مصطفى أمين في تقارير المخابرات من قبول الناس لحكم الخليفة، فإذن هذه بالإضافة إلى ما فيه من عنصر قبول الأمر الواقع فإنه نتج أيضاً من أن الخليفة قد عكس في سياسته[٣].

والواقع أن سياسة التهجير أدت إلى توسيع وتعميق جبهة المعارضة ضد الخليفة فقد وجدت بعض القبائل نفسها مدفوعة دفعاً إلى التمرد على الخليفة لسبب رفضها لسياسة التهجير. فقبيلة رفاعة الهوى التي ظلت سنداً قوياً للمهدية منذ البداية، ما لبثت أن تمردت على الخليفة عندما أمرها بالهجرة والأمثلة متعددة[٤].

تكتسب دراسة نتائج سياسة التهجير لأمدرمان أهمية خاصة. أولا لأن أمدرمان كانت عاصمة الدولة وحاضرتها التي اتجهت نحوها مجموعات كبيرة من المهجرين. وثانياً: لأن الهجرة كانت ذات آثار عميقة على أوضاع أمدرمان.

ويعود ارتباط أمدرمان بسياسة التهجير إلى أيام نشأتها الأولى حين انتقلت إليها عاصمة المهدية من جنوب أم درمان وأصر الخليفة على سكان الخرطوم في مايو ١٨٨٥م بالانتقال إلى أمدرمان. وكانت هذه بداية النهاية لخرطوم التركية وقد استثنى الخليفة الأشراف من ذلك[٥]. ولعله قصد بذلك الاحتفاظ بمسافة بينه وبين هذا العنصر المعادي له ولعل لهذا ارتباط بما فعله فيما بعد حين طرد بعضهم من أمدرمان. وهذا يؤيد ما ذهبنا إلى من قبل أن ياخذ سياسة التهجير وسيلة في الحكم والإدارة [٦].

= =

(1) Sltin. Op.Cit.P.582.

(٢) زلفو المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٣) محمود عبدالله إبراهيم، المرجع السابق، ٢٦، مصطفى الأمين ناشر سوداني قدم للمخابرات المصرية معلومات فحواها قبول الناس خاصة في دنقلا لحكم الخليفة بعد توشكي.

(٤) أحمد عثمان إبراهيم، عمالة الجزية خلال المهدية، رسالة ماجستير ، جامعة الخرطوم، ١٩٧٤م، ص ١٨٧.

(٥) أبو سليم، تاريخ الخرطوم، ٨١- ٨٢.

(٦) إبراهيم شحاته، المصدر السابق، ص ١٢٥- ١٢٩.

وقد مرت أمدرمان بأطوار مختلفة فمن مجرد معسكر حربي صارت مركز بتجمع سكاني ضخم في حجمه معقد في تكوينه إذا نجد الذي وصل إليها في سنة ١٨٨٦ يقول أنها امتدت لمسافة ستة كيلو مترات على طول النهر ويقدر عدد سكانها بأنه يتراوح ما بين ١٢٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠٠ نسمة وذلك في غير فصل الشتاء حين كان الناس يخرجون للزراعة لغير الزراعة نسبة للقيود التي يضعها الخليفة على حركة السكان إلى خارج أمدرمان. وفي سنة ١٨٨٨ امتدت المدينة مسافة ثمانية كيلو مترات وأصبحت تغطي مسافة عشرين كيلو مترا مربعاً تقريباً[١].

وتشير تقديرات أخرى إلى أن سكان أمدرمان قبل حضور أهل الغرب يتراوح بين ١٥٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠٠ ولكنه في سنة ١٨٩٥ بلغ ٤٠٠٠٠٠ نسمة[٢] فلم يكن سكان أمدرمان ثابتين كما ذكرنا مما جعل المدينة في وضع غير ثابت[٣].

وإلى جانب ما تعكسه هذه التقديرات من تضخم سريع في السكان فإننا لو اتخذنا هذا النمو السريع في مساحة المدينة واتساعها الجغرافي كمؤشر للنمو السكاني فمعنى هذا أن أمدرمان قد نمت سكانياً في الفترة الوجيزة منذ سقوط الخرطوم في يناير ١٨٨٥ بصورة غير طبيعية خاصة لو أخذنا في الاعتبار عوامل مثل قلة سكان البلاد عموماً في ذلك الوقت.

وعليه يصبح من المعقول أن التضخم السكاني السريع لأمدرمان لم يحدث بسبب نمو طبيعي ولا بسبب هجرة الأفراد العادية لأن هذه حتى عندما نتوفر العوامل المساعدة لها مثل فرص العمل إلخ ... لا تكون بالمعدل الذي يعكس هذا التوسع الشديد في مساحة المدينة وحجمها السكاني في هذه الفترة الزمنية الصغيرة ونحن نعلم أن أمدرمان لم يكن فيها الظروف المساعدة أو الشخصية لهجرة الأفراد مؤاتية فيها بالدرجة التي تجعلها مركز جذب قوي لمن يهاجرون بطوع أراءهم إذ كانت الحياة الاقتصادية تمر بفترة ركود[٤] لذلك يمكن أن نقول بلا تحفظ أن هذا المعدل المرتفع للغاية للنمو السكاني لأمدرمان يعود أساساً إلى سياسة التهجير، علماً بأن أفراد القبائل الذي اشتركوا في حصار الخرطوم لم يستقروا كلهم في العاصمة الجديدة بل عاد معظمهم إلى ديارهم[٥]، على أنه يجب أن نأخذ في الاعتبار أن من ضمن الأسباب في هذا النمو السكاني السريع وأن أمدرمان ورثت وظيفة العاصمة أصبحت مقراً للحكم والإدارة ولم تكن مدينة عادية[٦]. وإن كان الخليفة من الناحية الأخرى قد طرد بعض أولاد البلد من عاصمته.

وهنا يمكننا أن نسأل عن مدى تأثير سكان الخرطوم بعد سقوطها إلى أمدرمان عن في تضخيم الحجم السكاني للعاصمة الجديدة.

---

(1) Rcfrc. Op.cit., pp: 42, 43, 45.

(٢) أبو سليم، تاريخ الخرطوم، ص ٨٦.

(٣) دكتور محمد سعيد القدال، السياسة الاقتصادية للدولة المهدية، المصدر السابق، ص٧١.

(٤) أبو سليم، تاريخ الخرطوم ، ٥، ١٠.

(٥) نفسه ٩٩.

(6) Rnhn.Op.cit.124.

obeikandl.com

يبدو أن هذا التأثير كان محدوداً، فلو أخذنا أكبر تقدير لعدد سكان الخرطوم في العهد التركي وهو ٥٠٠٠٠ لوجدناه[١] لا يزيد عن ٤١٪ من سكان أمدرمان حسب التقدير الأقل هذا إذا افترضنا أن جميع سكان الخرطوم قد تم تهجيرهم إلى أمدرمان.

وعموماً فإن المصادر تؤكدأن تهجير القبائل هو السبب الرئيسي في تضخم عدد سكان أمدرمان ورغم أننا لا نتوقع وجود أرقام أو مقارنة للدقة عن حركة التهجير. إلا أن بعض التقديرات التي ترد في المصادر المختلفة – رغم ما فيها من تفاوت نعطي صورة عامة لما حدث . فماك يكل[٢] يقول أن عدد التعايشة الذين حضروا طواعية بلغ أربعة وعشرين ألف عند حضور قبيلة الجوامعة إلى أمدرمان أما اهرولدرد فيقول إن عدد المحاربين فقط من التعايشة كان سبعة آلاف . وإن من هاجر من الرزيقاغت بقيادة موسى ما دبو بلغ ثلاثين ألف[٣] وهي خطاب من الخليفة لأبي عنجه في ٨ محرم ١٣٠٦هـ ذكر أن التعايشة " حضروا بأكملهم حتى لقد يبلغون من عائلة المجاهد نحو ستون ألفاً[٤] وقد أرسل محمود ود أحمد إلى الخليفة قائمة بالقبائل التي هجرها حوت أسماء ست وخمسين قبيلة[٥].

وقد أدت سياسة التهجير إلى وجود نسبة عالية من التنوع السكاني في أمدرمان وقد تمثلت فيها تقريباً كل قبائل السودان ولكن أكبر المجموعات القبلية كانت تمثل القبائل التي طبقت عليها سياسة التهجير بإصرار.

وأدت المجاعة الشهيرة سنة ١٣٠٦هـ - ١٨٨٩م إلى زيادة عدد سكان أمدرمان من هذه الناحية غير المباشرة. فكانت القاعدة الاقتصادية لأمدرمان أضعف من أن تتحمل كل ذلك الثقل السكاني. وكما ينبغي أن نذكر هنا أن أمدرمان قبل المهدية لم تكن مركزاً لتجمع سكاني هام مما يؤكد أنها لم تكن تلك البنية الاقتصادية القادرة على تحمل هذا الحجم السكاني الكبير.

كما أن وجود هذه الأعداد الضخمة من أفراد القبائل المهجرين في المدينة منذ نشأتها ونمو أعدادها بمعدلات هائلة في فترة وجيزة للغاية قد أدى إلى تعطيل تطور المدينة وتقييدها بمستويات متواضعة للغاية من حيث تنظيم الأوضاع السكانية ومن حيث النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية.

كما أن توسع المدينة وتزايد عدد سكانها بهذه السرعة لم يتيح الفرصة لايجاد جهاز إداري يعنى بمشاكل المدينة ولم ينشأ مثل هذا الجهاز أو النظام الإداري حتى سقطت أمدرمان ١٨٩٨. فلذا لم تتطور البنة الاقتصادية والاجتماعية.

---

(١) أبو سليم، تاريخ الخرطوم، ٤٤.

(٢) نفس المصدر ٩٧.

(٣) شحاته، ص ١١٧.

(4) Ohrwalder. Op.cit., 390.

(٥) شقير: المصدر نفسه، ص ١١٣٩.

obeikandi.com

كما أن سياسة التهجير عملت على تعطيل التطور السكاني والعمراني لأمدرمان بسبب هذا الشعور بعدم الانتماء للغالبية من السكان مضافاً إليه رغبتهم الدائمة في العودة إلى ديارهم.

فقد ادت ضخامة عدد المهاجرين لاكتفاء السكان بمساكن شبه مؤقتة وبمستويات صحية متواضعة ولقد كان المهاجرون في أمدرمان أشبه بجيوش كبيرة في منطقة تجمع عسكري. هذا يعكس لنا وضع أمدرمان إلى حد كبير لذلك لم يكن العمران بمعناه المدني وارداً لا في التصور ولا في التطبيق.

السمات العامة لسياسة التهجير:

قبل الدخول في آخر مراحل هذا الموضوع والخاصة بمناقشة نتائج سياسة التهجير، لا بد من محاولة تكوين فكرة عامة عن المعالم الرئيسة لسياسة التهجير والسمات التي اتسمت بها باعتبار أن ذلك يساعد على فهم جوهرها وأبعادها وارتباطاتها من مؤثرات وردود فعل.

ولقد أشرنا سابقاً إلى التغيير الذي حدث من سياسة التهجير في عهد الخليفة وأنها أصبحت تخدم أهدافاً سياسية أساساً إذا كانت في عهد المهدي تتجه أولاً إلى خدمة الدعوة الدينية.

فنلاحظ هنا أن من أهم السمات التي اتصفت بها سياسة التهجير في عهد الخليفة كونها لم تستعمل فقط كأسلوب لخدمة أهداف سياسية معينة بل يبدو أنها تطورت بحيث أصبحت تشكل أسلوباً في الحكم تعالج به مشاكل الولاء والانتماء والمشاركة، كما تعالج مشكلة الأمن والإدارة والتعبئة العسكرية. فتطبيق الخليفة لهذه السياسة لم يكن مسألة إجراءات محددة زماناً ومكاناً بالنسبة لمن تطبق عليهم بل أصبحت طريقة وأسلوب لمعالجة المشاكل وحسمها . ولذلك طبقت هذه السياسة في مختلف الأقاليم بالنسبة لمختلف القبائل في مختلف الظروف السياسية. طبقها التعايشة وبقية قبائل الغرب إبتداء من الكبابيش حتى الرزيقات ومن الفور إلى الحمر ومن الهدندوة إلى الجعليين ثم الشكرية والضبابينة، ثم أولاد البلد وسكان الجزيرة، المجموعات التي شملتها سياسة التهجير وتذكر المصادر المختلفة بأن هذه القبائل هي:

الفور، الماهرية، الميدوب، الزغاوة، التعايشة، المسيرية، البني عامر، المعاليا، البرتي، العريقات، المحاميد، النوابية، الهبانية، الحمران، سيدرات، رفاعة الهوي، بني جرار، الجعليين.

وعندما خشي الخليفة أن تصير سنار قاعدة للأشراف أمر بحرقها وتدميرها ومنع السكن بها ولعله أمر بهجر الخرطوم لنفس السبب[1] ولم ينحصر تطبيق هذه السياسة على القبائل وحدها، بل طبقها على الأفراد والجماعات من غير القبائل طبقها على زعماء القبائل وغيرهم من الأفراد.

ثم أن الخليفة استمر في تطبيق هذه السياسة سنوات كثيرة وخسر في تطبيقها لكثير من المال والجند والجهد.

---

(١) أبو سليم، تاريخ الخرطوم، دار الإرشاد الخرطوم، ١٩٧١م، ص ٨١.

obeikandi.com

ويرى هولت في هذه السياسة عودة إلى النظام القديم، نظام الولاء القائم على العصبية والقبيلة[1] ولكن موسى المبارك يقول أن الصراع بين الخليفة والقبائل صراع لإحلال الولاء الديني والسياسي مكان الولاء القبلي[2]" ويدعم هذا القول أن قبيلة التعاتشة نفسها لم ترض سياسة التهجير. بمعنى أنها من الناحية القبلية البحتة لم ترضى بسلطة الخليفة ويظهر ذلك من موقف الغزالي الذي قتله الخليفة.

ولعلنا نوافق المصادر المختلفة بأن الذي حدث من الخليفة كان استناداً إلى أهله وهو سلوك مبني من حيث الفكرة والسياسة. فقد كانت لهذه الهجرات الجماعية في عهد المهدي والخليفة بعض الآثار إيجابية وأخرى سلبية نوجزها فيما يلي:

أولاً: **<u>الآثار الايجابية:</u>**

١- ساعد نزوح التعايشة إلى أم درمان على تهذيبهم من خشونتهم، فقد أخذوا بأسباب الحضارة بصورة سريعة، إذا بدأوا يبنون منازلهم بالطين " اللبن الأخضر" والطوب الأحمر والأحجار، بعد أن كانت منازلهم عند وصولهم لأم درمان في عهد المهدي من القش والجلود والشكاب.

٢- تأثر أبناء غرب السودان بالملبس فلبسوا فخر الثياب الهندية المصرية والعربية بعد أن كانت وخاصة النساء غير ساترة، وقد وصف محمد المهدي لبس النساء البقارة في رسالته التي أرسلها إلى الشيخ محمد الطيب البصيبر بقوله " النساء يلبسن الثياب الساترة ولا ينكشفن مثل نساء البقارة[3] " ولبست المرأة من غرب السودان لأول مرة في أم درمان الجزمة المعروفة باسم " المحبوكة" وهي جزمة هندية ذات سيور[4] أما الرجال من التعايشة فقد استبدلوا القميص الفضفاض "الواسع" واللباس الطويل الضيق استبدلوها بالجلاليب، والعمم البيضاء، وكانوا يسدلون العمامة من الناحية الشمالية من الرأس وهي العزبة التي أصبحت شعاراً يميز الأنصار عن غيرهم من طبقات المجتمع السوداني.

عرف البقارة الذين هاجروا إلى أم درمان نظافة الملابس بالصابون، وقد كان الخليفة عبدالله يأمر المهاجرين إلى أم درمان بالتوجيه إلى النيل لغسل ملابسهم وأجسادهم بالصابون قبل دخولهم المدينة[5].

ويبدو أن الخليفة كان يخشى أن يعيب عليهم أولاد البلد في أم درمان ملابسهم المتسخة فيحتقرونهم ويسخرون منهم.

---

(1) Holt, Bullction of the school of Oriental and African studies xx1958, 78

وانظر أيضاً : Mandist state 266 Holt حيث أن الخليفة كان دائماً أسير انتمائة القبلي، لكنه يصف هذا الانتماء أنه كان يعمل في غير صالح الدولة.

(٢) موسى المبارك، المصدر السابق، ص ٧٣.

(٣) مجموعة وثائق النحومي، ص ٥٣ " خطاب محمد المهدي إلى محمد الطيب البصير بتاريخ غرة شعبان ١٢٩٨هـ يوافق ٣٠ يونيو ١٨٨١م، مهدية ٣٦/٥/٨، دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(٤) بابكر بدري، تاريخ حياتي، الجزء الأول، ص ٣٢.

(٥) مهدية ٣٤/٤١٢٥/١٢ خطاب من الخليفة إلى حمدان أبي عنجة بتاريخ ٢٤ جمادي الآخر ١٢٠٣هـ ٣١ مارس ١٨٨٦م، دار الوثائق القومي بالخرطوم.

obeikandi.com

٣- ذكر الأب أهرولدو أن الخليفة عبدالله رغم أنه كان يتحدث بلهجة البقارة ويعتز بتلك اللهجة إلا أنه عمل على صقل عادات وتقاليد البقارة فاعتدلت لهجتهم، ولم تعد مجالاً للتندر والسخرية من جانب أولاد البلد[١]

ثانياً: الآثار السلبية للهجرة الجماعية:

١- افتقدت الزراعة في كردفان الأيدي العاملة القوية النشطة، وأصبحت تعتمد على كبار السن من الرجال والنساء فأدى ذلك إلى انخفاض الإنتاج الزراعي.

٢- زاد عدد العاطلين في أم درمان مما أدى لكثرة التسول وانعدام الأمن فانتشرت السرقة وكسر المحال التجارية، انتشر الفساد الأخلاقي، وازدحمت المدينة بالسكان الذين كانوا يتوافدون على دفعات.

٣- انعدام الأمن في أم درمان، فقد أصبح التجار لا يأمنون مبيت تجارتهم بمحلاتهم "الدكاكين" بالسوق حيث كانوا يحملونها معهم إلى منازلهم ليلاً وكان ذلك يكلفهم كثيراً من الترحيل والتعب كما كثر اللصوص في الأحياء مما جعله يسمح لكل قبيلة بحراسة حيها[٢].

٤- ساءت الأحوال الصحية في مدينة أم درمان بسبب سوء تخطيط المدينة، فقد بنيت المنازل بطريقة عشوائية، وكانت الشوارع في داخل الحياء ضيقة ومليئة بالقاذورات والروائح الكريهة الصادرة من الحيوانات الميتة ولا سيما في أيام الخريف الممطرة[٣].

٥- لم تكن مدينة أم درمان وما حولها منطقة صالحة لرعي الحيوانات فأصبحت شوارع المدينة مليئة بالبقر والحمير والماعز الميتة التي لوثت البيئة بفضلاتها. مما أدى إلى توالد الذباب وإنتشار الأمراض المعدية الفتاكة فمات عدد كبير من سكان المدينة[٤].

إذن فلقد كانت سياسة التهجير ذات نتائج وآثار سلبية على مجتمع أم درمان وقد أوجدت بعض المشاكل الاجتماعية والتي سوف نقف عليها في الفصل الخاص بالحياة الاجتماعية.

---

(1) Ohrralder. T.Ten year's Captivity in the Mahdaist Camp. P. 390-395.

(٢) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم، ص ١٠٢، ١١٩.

(٣) نفس المرجع، ص ١٣٢.

(٤) أبو سليم، المصدر السابق، ص ١٣٢.

obeikandi.com

النتائج السياسية:

ورغم ما سبق ذكره من أن الخليفة قد هجر التعايشة لدعم مركزه ولكن تبين له:

١- أنه لم يستطع الاعتماد عليهم في جميع الظروف بل الواقع أنهم أصبحوا في بعض النواحي عبئاً عليه وقد حاولوا أكثر من مرة العودة إلى ديارهم، واتصفوا بالاستبداد والعنجهية وعدم الرضوخ للنظام، ويقول هولت أنهم عاقوا الخليفة في محاولاته لتأسيس ملك وراثي[١] وأنه لا يستطيع الاعتماد عليهم في جميع الظروف كما حدث عندما تمرد الأشراف[٢] بل أنهم تمردوا إذا ائتمر بعصا منهم على اغتياله بدعوى استبداده وأنه ضيق عليهم العيش. فأشعوا السخط ضده وهربق بعضهم من أم درمان[٣].

٢- وكانت هذه الهجرة بالنسبة للتعايشة وهم أهل الخليفة، تعني ارتفاع وضعهم الاجتماعي وازدياد نفوذهم السياسي. ونلاحظ أن وجود عاصمة المهدية في أم درمان لم يتبعه ارتفاع في أهمية أهل البحر كما حدث ازدياد في قوة أهل الغرب عند هجرة المهدي إلى غربهم، بل حدث العكس إذا ازداد اهل البحر ضعفاً بينما ازداد أهل الغرب قوة إذ أصبحت القوة في يد أحد أبناء الغرب وانتقل إلى أبناء الغرب إلى العاصمة الجديدة باعتبارهم هم السند الأساسي للحكم. وكانت من أهم أهداف سياسة التهجير كما رأينا إضعاف أهل البحر وكان من أهم نتائج معادلة القوة الجديدة ازدياد قوة يعقوب وحدوث بعض التصفيات بين أولاد البلد مثل قتل إبراهيم عدلان أمين بيت المال.

---

(1) Holt Mahdia History of Sudan p.100.
(2) Holt, Madis state, 161.

(٣) أبو سليم، الحركة الفكرية، ص ٣٦.

obeikandl.com

النتائج الاقتصادية والصحية:

أما النتائج الاقتصادية التي كانت نتيجة لسياسة التهجير فهي:

١- خسرت بعض المجموعات خاصة التي كانت تمثل فئة نشطة وذات خبرة تجارية طويلة في المجال الاقتصادي وذلك لأخذ القادرين الأقوياء من الرجال كالكبابيش الذين اصطدموا مع الخليفة [١].

٢- كما عنى بني جرار من الفقر والفاقة. كذلك البجة وقبيلة القمع ولم يكتف الخليفة بذلك بل فرض على القبائل التي كانت تهرب من الهجرة عقوبات اقتصادي وأعلن أن أرضهم وأموالهم وممتلكاتهم غنيمة وخاصة الجعليين والشوايقة، والدناقلة وكانت تعطى ممتلكاتهم للأنصار[٢] وكان من بين هذه العقوبات الاقتصادية حرق المزارع في دارفور[٣].

٣- وعندما أتى البقارة ولم يكونوا قد تعودوا الاستقرار في المناطق الزراعية فتسببوا في اضطراب في بعض مناطق السكان المستقرين وانتشر الفساد والاختلاس وازدحمت المدينة بالسكان الذين توافدوا لزيارة قبر المهدي في الأعياد إلى جانب من جاء لتقديم الولاء للخليفة[٤].

وخلاصة الأمر أن سياسة التهجير قد أتت بغير ما يتوقع الخليفة عبدالله وكانت سبباً من أسباب ضعف وانهيار الدولة المهدية.

---

(١) عوض عبدالهادي، المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٢) أبو سليم، الأرض في المهدية، رسالة ماجستير الخرطوم، ١٩٧٠، ص ٢٤٥.

(٣) موسى المبارك، ص ١٢٤.

(٤) كتاب منشورات المهدية الجزء الثاني، "الإنذارات" ب، ص ٧، خطاب من المهدي إلى الخارجين من فقرة الخرطوم، بتاريخ ٢١ جمادى آخر ١٣٠٣هـ، ابريل ١٨٨٥م، دار الوثائق القومية تحت الرقم ١٥٢/١٥/٨.

obeikandl.com